الحرب العالميـــة الثانيـــــة

اندلعت الحرب العالمية الثانية في الثالث من ايلول من عام 1939 باعلان كل من بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا التي اجتاحت بولونيا في الأول من هذا الشهر. وكان هذا اليوم يوم عودتنا نحن طلاب الصف المتقدم في الكلية العسكرية من العطلة الصيفية. وأذكر أننا فتحنا في المساء راديو قاعة الملهى للاستماع الى نشرة الأخبار من برلين. واذا بصوت المذيع العراقي المشهور "يونس بحري" يلعلع بترجمة لخطاب هتلر الذي ألقاه بمناسبة اجتياحه لبولونيا لاسترداد ممر دانتزيغ وفيه يدعو "بالويل والثبور وعظائم الأمور" ويتهدد الانجليز والفرنسيين ويقول لهم أنه حشد الملايين من الرجال في جيوش أنفق عليها تسعين مليارا من الماركات. والحق يقال أننا نحن طلاب الدورة المتقدمة العائدة للتو من عطلتها الصيفية، اذ ما كانت دورة مستجدينا قد تكونت حينذاك، استبشرنا بأكثريتنا بذلك الحدث وأملنا كان أن يتلقى الانجليز والفرنسيون الذين طال اضطهادهم لنا وتمزيقهم لأوطاننا ضربة تكون بداية خلاصنا من قهرهم واستعمارهم. وقد تحقق بالفعل هذا الأمل فانهار الاستعمار القديم بنتيجة تلك الحرب. واذا كان الاستعمار الأميركي قد أتى ليحل مكان القديم بشكل أشد نكاية بالانسان، فان ذلك كان بسبب تقصير قادة التقدم والكفاح الوطني وجرائمهم عندما ألهتهم شهواتهم عن الانتباه لهذا الاستعمار الجديد وخنقه في مهده بدلا من أن يمدوا له يد المساعدة لمجرد كونه ضد القديم وهذا أمر بديهي لم تدركه بلاهة أولئك القادة.

وانحلت الكلية نتيجة للحرب ووزعتنا القيادة على القطعات كتلاميذ مرشحين ضباط. وكان من نصيبي، أنا ورفيق لي حليم داغر، أن عينا في أركان لواء مدفعية من عيار 155 مم يرابط في دمشق في الثكنة التي تحولت في الاستقلال، فغدت ثكنة التسليح وهي الآن مقر لنقابة العمال، وذلك من أجل أن نتبع دورة تأهيل لقيادة فصيل مدفعية. وبقيت ورفيقي داغر في ذلك اللواء قرابة الستة أشهر ثم أعدنا الى القطعات الخاصة، فعينت أنا قائد مدفع 75 مم في البطارية الأولى من الكتيبة الثالثة لمدفعية القطعات الخاصة المعسكرة في خانات حي باب جنين في حلب. ثم نقلت الى بطارية جبلية يقودها الكابتن نولو وهو من خريجي البوليتكنيك في باريز. فانعقدت بيني وبينه صداقة كان أساسها "غرامنا" نحن الاثنين بالرياضيات، فكان كلما وجد فراغا يرسل من يناديني اليه لنتناقش في مختلف المسائل الرياضية والفنية، وفي النسبية "موضة" الثقافة في تلك الأيام. فكان يكن لي كل صداقة واحترام وكنت أرى فيه الانسان الفرنسي الشريف سليل أولئك الثوار على الظلم من أمته. وقد جنيت فائدة كبيرة في تلك الكتيبة التي ماكانت تنقطع عن المناورات والتدريب المكثف ليلا ونهارا في ظروف الحرب تلك .

وانتقلت كتيبتنا من حلب الى اللاذقية لمواجهة هجوم محتمل من ايطاليا التي كان واضحا أنها ستدخل الحرب الى جانب ألمانيا وقد دخلتها بالفعل في العاشر من حزيران سنة 1940 ولكن الألمان كانوا قد نزلوا في النروج في الرابع عشر من حزيران سنة 1940 بتكتيك حربي يبرز لأول مرة في تاريخ الحروب وهو احتلال ذلك البلد بجيوش محمولة بالطيران بعد أن قصموا ظهر الأسطول البريطاني سيد البحار في تلك الأيام بطيرانهم الهجومي. ثم انهم احتلوا كلا من الدنمرك وهولندا وبلجيكا وحطموا الجيش الفرنسي وألقوا بالانجليز في البحر واحتلوا باريز خلال هجوم بري – جوي صاعق دام أقل من أربعين يوما: من 10 مايس الى 14حزيران 1940عندما رفعوا العلم الألماني على برج ايفل. واستسلمت فرنسا عندئذ وقامت حكومة فيشي بقيادة المارشال بيتان.. ولكن الجنرال ديغول لم يقبل بالاستسلام ولجأ الى انجلترا معلنا قيام فرنسا الحرة الديغولية في الثامن عشر من حزيران 1940

وبقيت سلطات الاحتلال الفرنسية في سورية ولبنان مخلصة لبيتان، ولم تستجب لنداء ديغول بالاستمرار في الحرب الى جانب الانجليز ضد الألمان. وقررت هذه السلطات اعادة افتتاح الكلية العسكرية للقطعات الخاصة. فعدت مع رفاقي، دورة المتقدمين، كمرشحين ضباط الى الكلية لاستكمال ثقافتنا العسكرية، وعاد معنا مستجدونا في دورة الشهيد البطل "احسان كم الماس" الذي ترك الجيش والتحق فيما بعد بالمجاهدين في فلسطين حيث استشهد في الجليل بعد أن أرعب الصهاينة بغاراته البطولية على مستعمراتهم. وجاء شهر أيار من عام 1941 وقامت الثورة العراقية، ثورة رشيد عالي الكيلاني التي أثارت حماس طلاب الكلية العسكرية الذين ما كانوا يخفون مشاعرهم المؤيدة للثوار العراقيين. ولو أن الوصول الى بغداد كان سهلا لكان عدد كبير من عسكريي القطعات الخاصة، وفي مقدمتهم طلاب كليتنا، قد التحقوا بتلك الثورة. ومع ذلك قررت ورفيق لي هو صبحي العقيلي أن نلتحق بتلك الثورة. فتركنا الكلية في يوم أحد وهو يوم عطلة في ذلك العهد. وذهبنا الى رجل فاضل من صناعيي مدينة حمص ومن أصدقاء والدي وهو الحاج يحيى الدالاتي "أبو رفعت" وطلبت مساعدته في ايصالنا الى الحدود العراقية. فدمعت عيناه تأثرا عند طلبي هذا الذي ذكره بوالدي، وبفوزي القاوقجي الذي كان ضابطا في القطعات الخاصة في موقع حمص. وكان يجتمع اليه والى والدي وغيرهما من رجالات البلد الموثوقين، ويبحث معهم موضوع الخروج والثورة على الفرنسيين قبل أن ينقل الى موقع حماة. حيث نفذ ما كان يعتلج في صدره فخرج بسريته ووسع الثورة السورية الكبرى من جبل العرب وغوطة دمشق الى مناطق سورية الوسطى، الى مناطق النبك وحمص وحماة.. واستدعى الحاج يحيى ولده رفعت وطلب منه تغيير ثيابنا العسكرية بثياب مدنية، واستضافنا في داره التي كانت سكنا لعائلتي عندما كان والدي قاضيا في حمص. ودرسنا مسألة الوصول الى الحدود العراقية واجتياز هذه الحدود للوصول

الى بغداد. لقد كانت مسألة عويصة ومفاجئة، لم يكن هنالك لجان مهيأة لمثل هذا الأمر. فقررنا في النتيجة الذهاب الى دير الزور حيث كان لي أصدقاء من أيام الدراسة الثانوية في حلب. فقام رفعت بايصالنا بسيارته الى تلك المدينة غير البعيدة عن الحدود العراقية. وهناك بلغنا أن ثورة بغداد قد أخمدها الانجليز بجيش جلوب. فعدنا أدراجنا ولكن الى حماة حيث التجأت الى بعض الأصدقاء ومنهم صديقي الشهم وجيه البرازي الذي استضافني ورفيقي في مزرعة له وفي بيت المجاهد المناضل (أبو رميح) الذي اشترى لي ولرفيقي بطاقتي قطار ركبناه الى حلب حيث استقبلني الأهل كما وصفت أعلاه.

كانت تكاليف هذه المغامرة ثقيلة على حياتي فيما بعد. فقد لوحقت مدة تقرب من العامين من قبل سلطات المستعمرين: من قبل الفيشيين أولا ثم من قبل السلطات الانجليزية والديغولية التي احتلت سورية فيما بعد في شهر حزيران عام 1941 بعد طرد الفيشيين منها. وفي النتيجة وبواسطة من أخي صلاح الذي كان في الخدمة وبدعم من المرحوم اللواء رفعت خانكان الذي كان برتبة كولونيل يعمل في قيادة القطعات الخاصة، عدت الى الخدمة ولكن بعد خسارتي لأقدميتي التي استرددتها في مطلع عهد الاستقلال. فقد أوقف هذا العهد كل الترفيعات عندما استرد سلطته على القطعات الخاصة وشكل منها الجيش السوري. وفي التصنيف الذي أجرته الحكومة الوطنية وبموجب قانون صدر عن المجلس النيابي أعيد الي قدمي وصنفت برتبة رائد مع رفاق دورتي في الكلية، الدورة التي كنت الأول فيها .

ما كان الاستعمار، ولم يزل، ليميز في علاقته بالأمم بين مختلف أشكاله التي يجعل منها جميعها تحكما مطلقا لعدوانيته واغتصابه. فالمعاهدة الفرنسية السورية التي أبرمت في عام 1936 وصدقتها المراجع الدستورية السورية على الفور بعد توقيعها تجمدت بتلكؤ الحكومة الفرنسية في اتمام تصديقها، ثم مزقتها فرنسا هذه بالعمل على الغاء الحكم الوطني السوري في عشية اندلاع الحرب العالمية وتعيين حكومة تتألف من مديري الوزارات برئاسة مدير الداخلية بهيج الخطيب. وهو من أصل لبناني صيداوي، من جحيّم. ثم عينت بعد اعلان الحرب حكومة برئاسة خالد العظم، وفي عهد هذه الحكومة في شهر حزيران1941 أعلن التحالف الانجليزي الديغولي استقلال سورية وانهاء الانتداب الفرنسي، وألقوا مناشير بهذا الاعلان على الحكومة على المدن السورية كمقدمة للهجوم على السلطات الفرنسية الفيشية وطرد من لايقبل بالانضمام الى ديغول وإعادته الى فرنسا. وفي أثناء ذلك هرب الكولونيل كوله باللواء الذي كان بقيادته الى فلسطين والتحق بالديغوليين الذين منحوه رتبة الجنرال وعينوه مكافأة له مندوبا للمفوض السامي في سورية بعد احتلالهم لها وطرد الفيشيين. وكان هذا الاستعماري الشقي العريق بظلم الانسان هو الذي وقع عليه اختيار المستعمرين الفرنسيين ليعمل على تهيئة لواء الاسكندرون بالقهر والتزوير لسلخه عن سورية

وتسليمه لتركيا، وقد قام فيما بعد بتحطيم البرلمان السوري وذبح حرسه من الشرطة العزل وضرب دمشق بالمدافع في التاسع والعشرين من ايلول عام 1945.

وقام الفرنسيون الديغوليون بعد طرد الفيشيين واحتلالهم لسورية الى جانب الانجليز، بتنصيب عميل قديم لفرنسا، وهو تاج الدين الحسيني، ليبينوا أن إعلان استقلال سورية المذكور أعلاه لا يعني شيئا جديا وأنهم أتوا مستعمرين لا محررين، تماما كعدم جدية الأميركان في كلامهم وتصريحاتهم واعلاناتهم عن التحرر والديموقراطية وحق الناس في تقرير مصيرهم. وهم في الواقع لا يعنون بالحرية الا "تحرير" خونة شعوبهم من قوانين بلادهم التي تمنعهم من خدمة الأغراض الاستعمارية الصهيونية المعاصرة، ولا يعنون بالديموقراطية الا "ديموقراطية" اللصوص في اقتسام منهوباتهم من الغنائم، ولا يقصدون في تقرير المصير الا تقرير عملائهم الصهاينة لاغتصاب الحقوق التاريخية للأمم في أوطانها كحق الشعب الفلسطيني مثلا في أرض فلسطين. ولكن هذا الشيخ تاج لم يعش طويلا ومات في عام 1943 في أجواء معارضة وطنية شديدة وسخرية لحكمه وحكم الديغوليين من ورائه. وأذكر مرة أثناء مروري بحي الصالحية أن شاهدت منظرا غير اعتيادي فرأيت عددا كبيرا من الكلاب الهاربة خوفا من متتبعيها من الشرطة الاضافية الذين كانوا راكضين للامساك بها وهم يتصايحون بشكل هستيري مضحك. وكان معلقا في رقبة كل كلب يافطة مكتوب عليها "شرطي اضافي!". وقد جمع من رتب هذا الأمر من الكتلة الوطنية هذه الكلاب وأطلقها على الضفة اليمنى لنهر بردى أمام سراي المرجة، مقر الحكومة في تلك الأيام، حيث كان يعسكر الشرطيون الاضافيون استعدادا لصد المظاهرات التي ما كانت تنقطع ضد حكم الشيخ تاج المذكور. فلما شاهدها أولئك الشرطة وفهموا الكتابة المعلقة برقابها قاموا بكل حماقة بملاحقتها وسببوا ذلك المشهد الساخر المضحك. والشيخ تاج هذا كان قاضي شرع سابق في دمشق وعضوا سابقا في الكتلة الوطنية قبل أن ينحاز الى المستعمرين الفرنسيين، وابن المجتهد الأكبر الشيخ بدر الدين الذي لقب بشيخ الاسلام. وأذكر وأنا صبي في المدرسة الابتدائية في حمص في أعقاب الثورة السورية الكبرى أن الشيخ بدرالدين مر في مدينتنا أثناء جولة له في سورية نشر فيها موضة العمامة البيضاء حتى بين الصبيان وذلك للدعاية لولده تاج الدين الذي نصبه الفرنسيون بعدها رئيسا للدولة السورية بعد الداماد أحمد نامي الذي وعدوه بإقامة عرش له في سورية.

واضطر الفرنسيون بعد موت الشيخ تاج الى اجراء انتخابات نيابية فازت فيها الحركة الوطنية بقيادة شكري القوتلي بمجمل المقاعد النيابية كما فاز فيها بعض النواب التقدميين كالاستاذ اكرم الحوراني عن مدينة حماة. وانتخب المغفور له القوتلي رئيسا للجمهورية الذي عين سعد الله الجابري رئيسا للوزارة وجميل مردم وزيرا للدفاع. وتقدمت كل من سورية ولبنان في طريق الاستقلال، وتسلم الحكم الوطني

فيهما المصالح المشتركة من يد الفرنسيين الذين ماطلوا مع ذلك في تسليم القطعات الخاصة واعادتها الى اصحابها العرب واشترطوا لذلك ابرام معاهدة معهم تضمن بقاء النفوذ الاستعماري لدولتهم قبل تخليهم عن قيادة تلك القطعات. فكانت الحكومتان الوطنيتان في دمشق وبيروت ترفضان هذا الأمر وتصران على الجلاء الفرنسي بدون قيد أو شرط.

في تلك الأثناء كانت ابعاد الحرب قد اكتملت بانخراط بقية الدول العظمى فيها: شنت المانيا هجومها على الاتحاد السوفييتي في 22 حزيران 1941، وانقضت اليابان على الاسطول الأميركي في بيرل هاربر ودمرته في 7 كانون اول من عام 1941، بحيث وقفت كل من الولايات المتحدة الأميركية وانجلترا ومعها الديغوليون والاتحاد السوفييتي والصين في مواجهة المانيا وايطاليا واليابان. وكان قد أعلن ميثاق الأطلسي من قبل رئيس الولايات المتحدة الأميركية روزفلت ورئيس وزراء بريطانيا تشرشل على ظهر باخرة تقف في مواجهة الساحل الأميركي في المحيط الأطلسي في 14 آب 1941، الميثاق الذي كان القصد منه تأسيس نظام عالمي كانت الولايات المتحدة تحلم به منذ عهد ولسن في أعقاب الحرب العالمية الأولى لتقيم شركة عالمية استعمارية بزعامتها ولكنها ما كانت حينذاك من القوة بحيث تتمكن من فرض زعامتها على قدماء المستعمرين أما في ظروف الحرب العالمية الثانية فقد اختلف الأمر بعد أن دمر هتلر جيوش فرنسا وانجلترا. نقول اذن أن الحرب في عام 1943 عند قيام الحكم الوطني في كل من سورية ولبنان بلغت أقصى نضجها. واتضحت تماما ملامح أربابها المؤثرين في سيرها والحاسمين في أمورها والدافعين لها نحو نهاياتها. ففرنسا الديغولية ما كانت في تلك الأيام قد اكتملت بهيكلها الاستعماري وكانت تعيش على مائدة حلفائها المستعمرين الآخرين. فكانت اذن على عجلة من أمرها لربط قطري لبنان وسورية بالمعاهدة المنشودة التي تحفظ لها سلطاتها الاستعمارية فيهما قبل أن تتطور الأحوال الى نهايات مجهولة قد لا يكون للديغوليين فيها قدرات كافية تمكنهم من فرض استعمارهم. أما الحركة الوطنية العربية في القطرين المذكورين والحكومتان الممثلتان لها في هذين القطرين فانهما ما كانتا على عجلة من أمرهما وكان لديهما كل الوقت لتعزيز مواقعهما الوطنية وتصعيد كفاحهما ضد المستعمر بالشكل الملائم دون الوقوع في غلط التعاقد معه وهو المفلس ودون اعطائه الفرصة لتعزيز مواقعه وانما السعي الى جعله بعجلته الهوجاء يرتكب الأخطاء المميتة، الأمر الذي حدث كما نرى في سياق حديثنا.

* * *